ملامح التمرد الديني في العراق القديم

المدرس المساعد
وليد سعدي الميالي
جامعة المثنى – كلية التربية الاساسية

أوروك للعلوم الإنسانية
المجلد :٦ – العدد : ١ - السنة :٢٠١٣

ملامح التمرد الديني في العراق القديم

المدرس المساعد
وليد سعدي الميالي
جامعة المثنى – كلية التربية الاساسية

المقدمة :

ان معرفتنا بالنظم الدينية والمعتقدات التي نشأت في العراق القديم لا تتعدى العصور التاريخية التي نجد فيها منذ أقدم عهودها نظاماً دينياً ناضجاً ، أما بداية هذا النظام واطواره البدائية التي مر فيها قبل ان يتطور فيصبح في الحال التي نعرفه فيها في العصور التاريخية فلا سبيل لنا لمعرفتها معرفة تاريخية أكيدة وهذه المعتقدات الدينية لفترة العصور التاريخية لابد وان تكون منشبعة عن المعتقدات التي سادت خلال الحضارات الزراعية التي انتشرت في الاقسام الشمالية من العراق خلال الفترة المحصورة ما بين ٨٠٠٠ – ٥٠٠٠ ق . م.

يمكن القول أن اول ديانة واضحة للإنسان قد ظهرت في العصر الحجري المتأخر وان اول معبود تصورته المجتمعات مما له علاقة بزراعة الانسان التي تعلمها في ذلك العصر ، كان على هيئة الهه عامة تمثل الارض والخصوبة والسبب الذي دعا سكان هذه الحضارات الى عبادة الخصوبة يرجع الى انها كانت العامل المهم والاساسي الذي يتحكم في حياتهم ، اذ ما دامت كمية الامطار كافية لنمو الزرع فأن الانتاج الوفير لا يتحقق الا من خلال توفر الخصوبة في الارض غير ان انتشار هذه الحضارات منذ بداية الالف السادس قبل الميلاد في المناطق الواقعة جنوب خط المطر والممتدة حتى موقع تل الصوان قد أدى الى زعزعة اركان تلك العبادة اذ ان امطار هذه المناطق السنوية كانت متذبذبة وغير مستقرة ، وهذا التذبذب في كمية الامطار كان الاكثر تأثيراً على حياة الانسان ومفهوم الألوهية عنده وهو ما نجده أيضا في اساس الزعزعة التي اصابت تأليه الخصوبة بعد تبادل الادوار الذي حصل والذي

جعل الانظار تتجه بالتأليه نحو قوى اكثر تأثيراً تمثلت بالعوامل الجوية المؤثرة على المطر والزرع والحصاد اكثر من اهتمامه بالخصوبة كما ان هذا التذبذب قد جعل الانسان يتسم بنزعة نفعية تقوم على اساس الأخذ والعطاء بينه وبين الالهة (ارفعي خطيئاتي وسأغني بحمدك) وبهذا الصدد يذكر جوردون ((لذا فأن أهداف الديانة الشرقية تبدو مادية بالنسبة لنا)) اذ نراه في تعبده يطالب بمواسم جيدة للخصب وامطار في فصل مناسب ، فضلاً عن نصر في الحرب ونجاح في الاعمال والعمر الطويل [١] .

ان التغيرات التي طرأت على عبادة العوامل الطبيعية بعد انتقالها الى القسم الجنوبي من العراق لا يمكننا ان نعتبرها ثورة على تلك المعتقدات ، انما نعدها بالثورة التي حاولت تصحيح المسار الديني والتخلص من السلبيات التي برزت نتيجة الانتقال من منطقة الى اخرى ، الا ان هذه السلبيات قد ظهرت مرة ثانية ولكن بشكل مختلف متمثلة بتصرفات الالهة وبعض سلوكياتها المشينة والتي جعلت الانسان يشكك في جدوى الوجود الإلهي .

صفات الالهة

خلافاً لما تصوره بعض الباحثين ، حينما ذهبوا الى ان العراقي القديم كان يعتقد بان الخير لا بد من موجد له ، والالهة هي التي توجده باعتبار ان ذلك يكون أحدى فضائلها الكبرى ، اذ ان الالهة لا تتمتع بصفة الالوهية الا بقدر ما تكون صانعة للخير ، وبالتالي ليس هناك الهة شريرة ، ولهذا يعتقد د . عبد الرضا الطعان انه اذا ما وجد الشر فانه لن يكون من صنع الالهة ، وانما من صنع الارواح الخبيثة [٢]، غير ان هذا التصور يتناقض مع جملة من الافكار التي عرفت عن العراق القديم ، وعلى رأسها فكرة التشبيه أي ان الالهة مخلوقات تشبه البشر من حيث الصفات المادية والروحية ولكنها استأثرت بالخلود لنفسها بعكس الانسان الذي قدر له الموت منذ ان خلق [٣] ومادام ان الانسان العراقي قد صور الالهة على شاكلته ، فانه لن

يجد ضيراً من ان يسبغ عليها المتناقضات الاخلاقية كافة ، من خير وشر وفضيلة ورذيلة وعدالة وظلم وقوة وضعف وغير ذلك من الصفات التي كانت يتصف بها الانسان نفسه ، كما ان العراقي القديم لم يكن منزها لألهته ولم يتصور ان هذه الالهة كانت محفوفة دوما بالكمال المطلق .

نحن نتفق مع الاستاذ كريمر في مذهبه ان العراقيين القدماء وبمقتضى وجهة النظر السومرية ((ان هؤلاء الالهة انفسهم هم الذين (خلقوا) الشر والكذب والجور والظلم ، أي جميع انواع السلوك المنافي للأخلاق الكريمة عند البشر منذ ان أقاموا العمران البشري)) وفي هذا يسوق لنا الاستاذ كريمر مثال هي النواميس Me التي اوجدتها الالهة لتسيير الكون وتنظيم شؤونه ، فهذه النواميس لم تكن تقتصر على كونها تشتمل على (الصدق والسلام والخير والعدالة) بل احتوت ايضاً على (الكذب والخصام والرثاء والخوف) [٤] .

الالهة مصدر الشر

في حدود التصور السابق فأن الالهة مثلما كانت مصدر للخير على اشكال الوجود فإنها تمثل في الوقت نفسه مصدراً للشر على الاشكال ذاتها ، واذا كان (مردوخ) يمثل مصدر الخير في اسطورة الخليقة البابلية فان (تيامة) تمثل مصدر الشر في الاسطورة المذكورة [٥] ، وليس ادل على ذلك من عبارات الاسطورة نفسها ، التي بينت هذا المضمون في اكثر من موضع ، حينما ارادت (تيامة) قتل الالهة الفتية التي عدت مسؤولة عن مقتل زوجها (ابسو) ((ام صوبور التي تخلق كل شيء ، صنعت اسلحة لا تقاوم ، ووشمت بالهلع تنانين غاضبة اولتها جلالاً وجعلتها مثل الالهة ... انها اثارت الافعى والتنين المتوحش ولاخامو الضخمة والكلاب المزبدة والرجل – العقرب والشياطين العاصفة المعادية والانسان – السمك والثور المتوحش...)) [٦] وفي وصف اخر لزمرة (تيامة) في الاسطورة ، يرد ما نصه ((انهم كانوا غاضبين لا يفكرون الا في الشر ليل نهار دون هوادة)) وفي وصف (

مردوخ) للالهة (تيامة) حينما يخاطبها ((لماذا من الخارج تظهرين العواطف الحسنة في حين ان قلبك لا يفكر الا في شن الهجوم ؟ بسببك ابتعد الابناء وخدعوا اباءهم ، وانت ذاتك امهم تبغضين الرأفة... لم تبحثي الا عن الشر، واتجاه الالهة ابائي قد برهنت على خبثك)) [٧] وهذا ما جعل الدكتور سامي سعيد الاحمد يعتقد ان العراقي القديم كان يتصور ان قوى الشر بأجمعها تظهر في شخص هذه الالهة الشريرة [٨] والحق انه لم يجانب الصواب في اعتقاده هذا . كما ان (سن) اله القمر قد تعرض الى هجوم من قبل الهة الشر اذ يذكر احد النصوص : ((اخترقت الهة الشر قبة السماء تجمعت غاضبة حول هلال الاله القمر ... فأصبح مظلما في الليل والنهار ولم يجلس على عرش سلطانه...)) وهذا النص هو جزء من ترتيلة دينية يبدو انها كانت مخصصة لوقت الخسوف [٩] .

ومثلما تظهر الالهة الشر بعضها للبعض الاخر مستخدمة اساليب شتى في ذلك من طبيعية وغير طبيعية فإنها يمكن ان تضمر الشر للطبيعة نفسها ، والالهة في حدود سلطتها هذه يمكن ان تسخر قوى الطبيعة لأعمال الشر ، فالرياح (الشريرة) او العاصفة التي تفني الارض او الريح المدمرة ... كلها من قبل الالهة الشريرة ، والالهة بعد فعلها هذا تترك المدينة خرابا ، اذ يرد في احد النصوص ((الارض ممتلئة بالأموات ، الجدران مفخورة ، بل ان الموتى اصبحوا ركاما ، وتبعثرت جثثهم ، وامتلأت ثقوب الارض بالدماء ، لقد ذابت الاجساد كما الدهن في الشمس)) وبعد ان شعر الحكيم العراقي ان أي رحمة او شفقة انعدمت من قبل الالهة نجد انه يصفها هنا بالحقود اذ ان الالهة استمرت في انزال الشر بالمدينة على الرغم من ان الشعب لم يبطل النواح . [١٠]

الى جانب هذا فان الالهة تضمر الشر للإنسان ايضاً وبشكل مباشر هذه المرة ، بسبب ومن دون سبب ، اذ تظهر قصة الطوفان ان الاله انليل اله الجو والرياح

استطاع اقناع الالهة بأنزال الامراض والاوبئة بين الناس في كافة ارجاء البلاد وتذكر قصة الطوفان بهذا الخصوص :-

((لم تمض بعد الف ومئتا سنة ، حتى توسعت البلاد وتكاثرت الناس وصارت البلاد تخور مثل الثور ، فانزعج الاله انليل من ضجيجهم اجل ، لقد سئم انليل صخبهم فقال مخاطباً الالهة العظيمة : لقد اصبح صخب الناس شديداً على وحرمني ضجيجهم من النوم ، فلتأمر بانتشار الوباء بين الناس)) ويظهر من خلال القصة المذكورة ان الحكيم العراقي لا يحمل الهاً واحداً المسؤولية ، بل يرميها على عواتق الهة عدة ، لكن الخطأ دوماً يسجل بأسم الاله الرئيسي ، ثم تذكر قصة الطوفان ان الآلهة لم تجد بداً من الموافقة على طلب انليل وفوضت نمتار الموكول بالأمراض والاوبئة تنفيذ خطتها وسرعان ما انتشر الوباء في البلاد واخذ يلتهم الناس التهاماً ، عندئذ استنجد (اتراخاسيس) باله الحكمة (ايا) داعياً اياه ان يخلص الناس من البلاء الذي هم فيه ، ثم تذكر القصة المذكورة ان الناس سرعان ما تكاثرت اعدادهم مرة اخرى وان ضجيجهم تزايد في البلاد على النحو الذي ذكرناه في بداية الحديث عن القصة ، فقرر انليل ان يرسل عليهم الجفاف والقحط والمجاعة وكما في المرة السابقة وافقت الالهة على قرار انليل وحلت المجاعة بين الناس لمدة ست سنوات ، الا ان الاله (آيا) اشفق على الناس فسمح بتدفق المياه من المحيط السفلي لإرواء الارض وتخليص الناس من الجفاف والمجاعة [١١] .

وكان عمل الاله (آيا) قد اغضب الاله انليل الذي صمم في هذه المرة على ان تؤدي جميع الالهة القسم لأرسال الطوفان الاعظم وتدمير الارض ومن عليها ، ثم جاء الطوفان الهائل

((رعد يشق عنان السماء ، اعاصير مدمرة تعصف وتزمجر (مثل نهيق حمار الوحش) فيضان عارم تخور مياهه مثلما يخور الثور ، وظلام دامس في كل مكان من الارض ، واستمر الحال على هذا المنوال سبعة ايام وسبعة ليال جاء الطوفان

خلالها على كل ما في الارض من مخلوقات ((فأصبح الناس يملئون البحر كأنهم صغار سمك)) على حد تعبير رجل الطوفان .

كما ان هناك مثال أخر وهي قصة عذاب ايوب كأحد انواع الشرور من قبل الآلهة على البشر حتى وان كان ملتزم بطاعة الالهة ، ومما تقدم ذكره ، فأن الالهة يمكن ان تضمر الشر فيما بينها ، كما يمكنها ان تضمر الشر للطبيعة والانسان ايضاً[١٢].

الالهة بين الخطيئة والرذيلة

لما كان العراقي القديم قد صور اخلاق الالهة على هيئة اخلاق البشر ، فلم يتحرج من نسبة النواقص الى هذه الالهة ، لذا نجد ان الالهة لا تتورع عن اتيان الخطيئة والرذيلة في أي وقت وبمسوغ ومن دون مسوغ ، وامامنا نصوص عدة تظهر امكانية وقوع الالهة في الرذيلة وارتكابها للخطأ ، ففي الحديث عن الخطيئة في اسطورة (انكي و ننخرساك) نجد ان الاله (انكي) يقترف اثماً يستحق عليه العقاب يتمثل في اكله للخيرات المادية الثمانية . التي كانت (ننخرساك) قد خلقتها [١٣] وفي ملحمة كلكامش نجد مرة اخرى ان الالهة لم تكن معصومة من الخطأ وتتمثل الخطيئة في هذه الملحمة بقرار الالهة بأماته من لا يستحق ، مثلما فعلت مع انكيدو او مثلما بعثت (عشتار) الثور السماوي لإيذاء كلكامش وصديقه ، كما نلاحظ في ملحمة اتراخاسيس ، ان الالهة تعترف بالخطأ الجسيم (الذي ارتكبه (انليل) حينما ارسل الطوفان على البشر. [١٤]

اما الحديث عن الرذيلة فأن اسطورة (انليل وننليل) ، تقدم دليل على خرق قوانين العفة وتكشف عن الجانب اللاأخلاقي للالهة والمتمثل باغتصاب (انليل) للألهة (ننليل) ، والملاحظ ان الاله (انليل) ينفي اقترانه بالالهة (ننليل) اغتصاباً ، مما يجعل الالهة تصدر امرها بمعاقبة الاله انليل بنفيه الى العالم السفلي [١٥] ، الا ان اوضح مثال عن امكانية ارتكاب الالهة للرذيلة نجده في النص الخاص بالصراع بين

كلكامش وعشتار فكلكامش الطالب للعدالة والباحث عن الخلود والقاتل لرموز الشر يرفض الاقتران بالالهة (عشتار) التي مثلت هنا رمزاً للرذيلة ، وقد جاء وصف هذه المسألة وصفاً دقيقاً حينما بدأ كلكامش يسرد اعمال هذه الالهة الخؤون التي لم تجلب الا الشرور والويلات والظلم على المفتونين بها ((فأي حبيب بقيت على حبه الى الأبد ؟ واي من رعاتك من طاب لك على الدوام)) ..... ((الموقد الذي سرعان ما تخمد ناره من البرد ، الباب الذي لا ينفع في صد الريح او العاصفة، والقصر الذي يحطم البطل ، والبئر الذي يبتلع غطاءه ، والقير الذي يلوث حامله ، والقربة التي تبلل صاحبها)) [١٦] .

ضعف الالهة وعجزها

على الرغم من ان الالهة تمتلك ارادة مطلقة وفعلها يكون شامل لكل الموجودات ولا يحد من اراداتها وقدراتها أي شيء ، الا ان هناك بعض النصوص التي تظهر الالهة وهي تمتلك ارادة نسبية محدودة التأثير والفعل ، فا الالهة (انليل) لم يتمكن من ابادة البشرية بكاملها ، على الرغم من ارادته قضت بذلك ،كما ان الاله (انليل) نفسه لم يستطع ان يتخلص من قرار الالهه بفرض عقوبة عليه با نزاله الى العالم السفلي ، حينما خرق عفة الالهة (ننليل) واقترن بها اغتصاباً [١٧] ، ونورد مثال اخر من قصة الخليقة البابلية حينما تذكر ان الاله (آيا) تراجع امام الالهة (تيامة) ولم يتمكن من محاربتها على الرغم من ارداته الجبارة وقوته العظيمة [١٨] ، وهناك مثال اخر على عدم قدرة الالهة على فرض ارادتها ليس فيما بينها بل حتى على البشر نفسهم فاالالهة (عشتار) في ملحمة كلكامش لم تستطيع ان تفرض ارادتها على البطل كلكامش بالاقتران به ، ولا الانتصار عليه ، مع صديقه انكيد في معركة الثور السماوي [١٩] .

فضلاً عن الحديث عما سبق فأن هناك بعض النصوص التي تظهر عجز الالهة التام عن أي فعل يخصها او يخص غيرها ، فا الالهة لم تقف في وجه الاله (انليل)

وغضبه العارم حينما قرر الطوفان بقصد ابادة البشرية في ملحمة (اتراخاسيس) ، وكما نجد الالهة (ننليل) تستسلم لقدرها وتبدو عاجزة تماماً امام الاله (انليل) الذي اقترن بها اغتصاباً ، ومن الامثلة الاخرى الدالة على عجز الالهة نجد الاله (انكي) في قصة سرقة (نواميس الكون) عجز عن المحافظة على هذه النواميس بعد ان اخذتها منه الالهة عشتار بواسطة الخديعة . [٢٠]

والملاحظ فيما سبق من الامثلة ، ان الالهة لا تتنازل عن ارادتها تنازلا اختياريا وانما يجري تحديد قدراتها فرضاً وقسراً ، مما يظهر عجزها عن التأثير في مسار الاحداث وتضاءل قدرتها الى مستوى العدم .

الانسان أمام الالهة

هناك اربع قصص على الاقل تفسر خلق الانسان ، وانها مختلفة مما يوجب افتراض تعددية التقاليد ، فثمة اسطورة تقص ان الكائنات البشرية الاولى نبتت من الارض مثل الاعشاب وتبعاً لترجمة اخرى ، فأن الانسان قد صنع من الطين من قبل بعض الصناع الالهة ، ثم ان الربة (نامو) صنعت له القلب و (انكي) اعطاه الحياة ، وتعين نصوص اخرى الربة (ارورو) كخالقة للكائنات البشرية واخيراً وحسب الترجمة الرابعة ، ان الانسان قد صنع من الهين مذبوحين لهذه الغاية ، حسب ما تذكر قصة الخليقة البابلية وتبعاً لاثنين من الترجمات السابقة ، ان الانسان الاول تقاسم نوعاً ما الوجود الالهي النفحة الهية من (انكي) او الدم من الالهة (lugma) الامر الذي يعني انه لم توجد مسافة غير ممكنة العبور بين طريقة التكوين الالهي والشرط الانساني ، وبهذا الصدد يذكر (رايموند جستين) عند الحديث عن الخطيئة ، ان البشر ليسوا خدام الالهة فحسب وانما مماثليهم ايضاً وبالنتيجة اقرانهم[٢١]

لقد عانى الانسان منذ فجر الانسانية من الفوضى وما نشوء الديانة الطبيعة الا نتيجة لهذه المعاناة ولهذا اوجد الانسان الالهة التي ارادها ان تمثل الضابط المنظم

لفوضى الطبيعة ومظاهرها ، وللإنسان وفعالياته في الحياة ، ولكن اذا كانت الالهة قد فشلت في تحقيق مهامها التي اوكلت اليها من قبل الانسان في الحقيقة وما عاد لها أي نفع او فائدة تذكر وغير قادرة على التخلص من الفوضى ، فأن على الانسان ان يبحث عن مفهوم جديد للعلاقة بينه وبين الالهة ، وقد ظهرت مثل هذه الافكار في نهاية الالف الثاني قبل الميلاد زمن التحدي والفوضى والتشاؤم الذي عبرت عنه مجموعة من القطع الادبية مثل (الحوار بين السيد والعبد) و (الحوار بين المعذب والحكيم) [٢٢] وكانت قد انفجرت ازمات روحية مماثلة في اماكن اخرى (مصر ، فلسطين ، الهند ، ايران ، اليونان) مع نتائج مختلفة لأن الأجوبة على هذا النموذج من التجربة العدمية قد اعطيت تبعاً للعبقرية الدينية النوعية لكل ثقافة [٢٣] .

واذا اردنا معرفة المراحل التي مر بها انسان ذلك العصر حول التداعيات الجديدة في الفكر الديني وما قادت اليه من افكار جديدة بوصفها مشكلة تفترض المعالجة والحل فيمكننا التوصل الى اعتبار القلق والشك من اهم هذه المراحل التي قادت خطاه نحو ضعف الاعتقاد الديني والتمرد .

القلــق

اذا امكن القول ان الانسان ، هو كائن قلق الحس ، يبحث عن ملجأ يأتمن اليه ، فأن الانسان العراقي القديم توفرت له كل دواعي القلق ، تلك التي ارتبطت منها بالاعتقاد الديني ، او الظروف الطبيعية او السياسية وحتى الاجتماعية ، واذا كان التحول في الاعتقاد الديني بين القسم الشمالي و الجنوبي ما هو الا تعبير عن ذلك القلق الذي بدأ يراود الانسان وكما مر ذكره ، فأن ثمة عوامل اخرى تتعلق بشؤون الالهة وسلوكها قد اضافت الى قلقه هذا قلقاً اخر وجعلته في حيرة وتمزق [٢٤] ولما كان الانسان قد صور الهته على شاكلته وجعلها تماثله في حياتها وعالمها وقوانينها الا الخلود [٢٥] ، كان لابد ان يعترى هذه الالهة النقص ، فهم أي (الالهة) لا يتمتعون بمعرفة كل شيء كما كان منتظراً منهم ولا علم لهم بالأحداث الا بواسطة رسل

مكلفين بذلك وقصة الطوفان تشهد على صحة الامر فالإله (انليل) الذي امر بالطوفان ، لم يكن عارفاً بنتائج الطوفان ، لأنه ادركها بعد ان تم حدوثها وذلك لدى استنشاقه رائحة قربان الشكر ، و انليل نفسه لم يكن يعلم بأن الاله (أيا) هو الذي اخبر البطل الذي تمكن من الهروب من الطوفان [٢٦] ، كما ان الالهة الكثيرة التي ابتدعها المفكر العراقي قد نبعت منها جملة مشكلات فكرية حاول احتواءها بعدد من التنظيمات لمجلس الالهة والذي هو بالحقيقة مشوش المعالم وقد حاول البابليون تنظيمه وترتيبه في محاولة منهم لإضفاء الطمأنينة على ذلك القلق [٢٧] .

لم تكن موجة القلق تلك نابعة فقط من اسباب فكرية محضة بل كان للواقع المضطرب دور كبير فيها ، فالصراعات السياسية العنيفة بين دول المدن في العراق القديم قد اثرت كثيراً في نفوس ابنائه ، فعلى الرغم من اقتسام الالهة للمدن آنذاك فان الصراع السياسي والاجتماعي هذا قد اظهر فشل كبير الالهة في وحدة تلك الالهة والذي انعكس على صراع المدن السياسي كما دفع الظلم الاجتماعي الى ضعف الاعتقاد الديني . [٢٨] ولا يفوتنا هنا ذكر التفاوت الاقتصادي المتمثل باستحواذ الكهنة على جميع الاراض باعتبارها ملك للإله ، ففضلاً عن الامتيازات والمرتبات العينية المقررة كانت هذه الفئة تهيمن على القرابين المقدمة الى الالهة .

الشـــك

لم تكن الحياة مرتبطة بتدين عميق في نفس العراقي القديم لتخلو من الاسباب الداعية للوصول الى نوع من الشك قادراً على ان يجعل المرء يعيد النظر في معتقداته وآرائه وتدفعه لمحاولة الاقتراب من الهته وفهمها بالشكل القادر على اشاعة الطمأنينة واليقين في ضميره المعذب ، واذا كان الانسان وهو يمر بمعتقداته من حال السحر الى حال التأليه لقوى الطبيعة ، قد وجد بعض السلوى في معتقده ، الجديد الا انه لا يمكن القول انه غادر تماماً امواج الشك والريبة وعاش مطمئن الضمير [٢٩] ، وبهذا الصدد يذكر فريزر ((ان الفيلسوف البدائي قد وجد نفسه بذلك وسط بحر من

الشك وعدم اليقين وقد انقطعت الحبال التي كانت تربطه الى مرساته القديمة فتزعزعت ثقته القديمة الهائنة في نفسه واهتزت قواه في اساسها)) (٣٠)

ويمكن ان نتلمس سبباً من اسباب هذا الشك في تلك الحكمة التي تقول ((اعل فوق الاطلال القديمة وتمش فوقها وانظر الى جماجم الماضين والمتأخرين فأيهم الاشرار وايهم الصالحون)) (٣١) وقد ظهر الشك عند الانسان في ارادات الالهة نفسها وفي اعمالها واذا كان ما يصيب العبد المطيع من الخير في العصور القديمة يتم باستعطاف الالهة والسلطة على مجازاته خيراً ، فقد تغيرت القيم في العصور التالية فاذا لم ينل الفرد الجزاء الذي يستحقه من سلوكه الصحيح تجاه الالهة فأنه بدأ يشكك في ارادة الالهة ويتجرأ في السؤال عن اعمالها . (٣٢)

لكن اذا كان ما يفترض من الالهة هو ان تثيب الخير وتعاقب الشر هو امر مشكوك فيه ولعل خير ما يعكس لنا هذا التشكيك هي القطعة الادبية المعروفة بعنوان ((لا مجدن رب الحكمة)) بحيث ان ((الغني الذي كدس الاموال لا يقدم أي قرابين للإلهة)) على الرغم من هذا فهو ينعم بأحسن اللحم والحياة الهانئة الرغيدة ((كثيرون هم الذين لا يلتزمون بعبادة الالهة ولكنهم ساروا في طريق الفلاح ، في حين ان العابدين الاتقياء فقراء معدمون وان في ايام شبابي كنت اسير وفق ارادة الهي وتعلقت بإلهتي في التضرع والصلاة ولكنني كنت انوء بجر النير في (عمل سخرة) لا نفع منه لقد كتب علي الهي الفقر بدل الغنى ، فالمقعد خير مني والبليد سبقني ، وعلا شأن اللئيم ، اما انا فنزلت الى حط درك)) (٣٣) . وبهذا فأن نظام الاخلاق الذي يفترض ان تؤسسه الالهة غير موجود بحسب النص المذكور ولا سبيل لان تحقق الالهة ارادتها في أي نوع من انواع الجزاء العادل .

ولو حاولنا استقراء تداعياته التي يسجلها في احدى حواراته التي خلفها لنا لوجدنا من خلالها ذلك الشك العميق الذي بات يستشعره ازاء كم هائل من

المعتقدات صار يصعب اليقين بها تماماً ففي ((حوار العبد وسيده)) الذي يمكن الادعاء بانه اول تسجيل لحالة شك انسانية مكتوبة .

((السيد : احضر لي ماء لأغسل يدي ، اريد ان اقدم قرابين لإلهي

العبد : افعل ذلك يا سيدي ، افعل ، فان من قدم القرابين لألهه نال السعادة واضاف دينا على دين.

السيد : لا يا عبد ، لن اقرب .

العبد : لا تقرب يا سيدي ، تستطيع ان تعلم الاله ان يركض وراءك كالكلب عندما يحتاج اليك لتقيم شعائره)) (٣٤) .

وتطالعنا صورة عميقة لمرارته وشكه وهو يتاؤه ((ايها العاقل الحكيم ، يا صاحب الذكاء تأوه من صميم قلبك ان قلب الاله بعيد بعد اطباق السماوات الداخلية ، والحكمة صعبة والناس لا يفهمونها)) (٣٥) شعور بالعي والجهل وتشكيك بالوجود والقيم ((الانسان ابكم ، لا يعرف شيئا ، البشر كل الموجودات ماذا تعرف ؟ اكان مقترفاً آثماً او فاعلاً خيرا ، انه لا يعرف حتى ذلك)) (٣٦)

التمـــرد

لقد كان لسلوكيات الالهة واعمالها اتجاه بعضها البعض واتجاه البشر انفسهم اثرها البارز في زعزعت ثقته بالالهة نفسها وكانت صرامة الزهد الديني القديم قد خفت حدته ، بإزالة الحدود وتقريب المسافات بين عالم البشر وعالم الالهة (٣٧) : فقد (اله) ملوك العصر السومري الجديد انفسهم وعبدوا في اثناء حياتهم ومن بعد مماتهم وكانت القرابين تقدم الى تماثيلهم في انحاء البلاد مرتين في الشهر وسمي احد شهور السنة في التقويم السومري باسم الملك (شولكي المقدس) على غرار اسماء الالهة (تموز المقدس و بأو المقدس) (٣٨) و دفنوا في قبور فخمة شيدت فوقها معابد كبيرة لتقديم القرابين اليهم وعبادتهم ، وكشف عن ثلاثين ترتيلة دينية للملك (

شولكي) خوطب بها كأنه اله من الإلهة وانه تحدر من صلب الالهة وقد ادعى بأنه ذو قربى بالإله شمش [٣٩] .

لقد سبق ملوك العصر الاكدي ، ملوك سلالة اور الثالثة الذين تلقبوا بلقب ملك الجهات الاربع والذي كان خاصاً ببعض الالهة ذات النفوذ مثل انو و انليل وشمش بصفتهم اسياد الخليقة والكون [٤٠] وكان (نرام - سين) قد سمي نفسه (نرام - سين) الالهي اله اكد ، وقد صور نفسه على مسلته محاطاً بالأبواق واضعاً على رأسه التاج المقرن التي تدل على جسارة عظيمة كما يقول ماركرون لكون ذلك من صفات الالوهية [٤١] . الا ان جسارة هذا الملك لم تقف عند هذا الحد ، الذي مضى بعيداً وتجاوز الحدود المسموح بها لبني البشر ، وكان قد دمر مدينة (نفر) وارتكب جميع انواع الامتهان والتدنيس ازاء (ايكور) المعبد العظيم الخاص بالإله (انليل)[٤٢] اما الملك ريم – سين ملك سلالة لارسا فقد وصل به الحال الى التجاوز على الالهة بإلغاء اسم الاله من صيغة القسم المعروفة والتي عادةً ما تتم ، باسم الاله والملك لتصبح اقسم بأسم الملك ريم – سين [٤٣] ، هناك مثال واضح لتمرد الانسان على الالهة يمكن ان نلمسه في النص الخاص بالصراع بين كلكامش و عشتار ، والذي نوهنا عنه مسبقاً ، فكلكامش ، الطالب للعدالة والباحث عن الخلود والقاتل لرمز الشر كان من الطبيعي ان يرفض الاقتران بعشتار التي مثلت هنا رمزاً للرذيلة وكان رفضه هذا مصحوباً بسلسلة من العبارات المهينة والفظة [٤٤] الا ان ابعد ما مضى اليه الانسان في ثورته وتمرده هذا يمكن ان نلاحظه في القطعة الادبية التي تقول ((لن انصاع لأوامر الالهة وسوف ادوس بقدمي على شعائرها)) ليدخل بذلك منطقة الكفر [٤٥] .

الخاتمـــة :-

ان التغيرات التي طرأت على عبادة العوامل الطبيعية بعد انتقالها الى القسم الجنوبي من العراق كانت الاكثر تأثيراً على حياة الانسان ومفهوم الالوهية عنده ،

وكانت قد ادت الى زعزعة اركان تلك العبادة ، فضلاً عن ذلك فقد ادى الصراع السياسي والظلم الاجتماعي والتفاوت الاقتصادي الى ضعف الاعتقاد الديني .

لقد كانت مواضيع التأليه ذاتها منبعاً لشكه وريبته باعتبار ما بات يلاحظه من ازدواج الفعل الالهي عنده وتذبذبه بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة والعدل والظلم والقوة والضعف التي تدخل الحيرة الى نفسه والشك والتمرد وقد ظهرت في مثل هذه الافكار في نهاية الالف الثاني قبل الميلاد زمن التحدي والتشاؤم والانحلال الحضاري الذي حل بحضارة بلاد الرافدين واماكن اخرى من العالم القديم .

هوامش البحث

١) حول ذلك ينظر :-

ـ باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج١ ، ط٢ ، بغداد ، ١٩٥٥ .

ـ رشيد ، فوزي ، الديانة ، حضارة العراق ، ج١ ، بغداد ، ١٩٨٥ .

ـ الوائلي ، فيصل ، صلاة لكل اله ، مجلة سومر ، مج٢١ ، ج١-٢ ، بغداد ، ١٩٦٥ .

ـ تشايلد ، جوردن ، ماذا حدث في التاريخ ، ترجمة جورج حداد ، القاهرة ، بدون تاريخ.

٢) الطعان ، عبد الرضا ، الفكر السياسي في العراق القديم ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص٥٠٥.

٣) الدباغ ، تقي ، الفكر الديني القديم ، ط١ ، بغداد ، ١٩٩٢ ، ص٢٥- ٢٦ .

٤) كريمر ، صموئيل ، من الواح سومر ، ترجمة : طه باقر ، بغداد ، بلا تاريخ ، ص١٩٦ .

٥) الدباغ ، تقي ، المصدر السابق ، ص٢٦-٢٧ .

٦) لابات ، رينيه ، المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين ، ترجمة : الاب البيرا ابونا و وليد الجادر ، بغداد ، ١٩٨٨ ،

ص٣٩ .

٧) لابات ، رينيه ، المصدر نفسه ، ص٥٣ .

٨) الاحمد ، سامي سعيد ، الاصول الاولى لافكار الشر والشيطان ، مطبعة جامعة بغداد ، بغداد ، ١٩٧٠ ، ص١٩-٢٠ .

٩) ساكز ، هاري ، عظمة بابل ، ترجمة : عامر سليمان ، الموصل ، ١٩٧٩ ، ص٣٣٩ .

١٠) جاكوبسن ، توركيلد وهنري ، فرانكفورت ، ما قبل الفلسفة ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص١٦٦ .

11) Pritchard . J . B ; Ancient near eastern text , Princenton univpress new , Jersey , 1950 , P. 42 – 43 .

- Lambert , W , G & Millard , A , R ; ATRA- HASIS , The Babylonian story of the flood , oxford , 1969 .

١٢) علي ، فاضل عبد الواحد ، الادب ، حضارة العراق ، ج١ ، بغداد ، ١٩٨٥ ، ص٣٣٠-٣٣٦ .

١٣) كريمر ، صموئيل ، الاساطير السومرية ، ترجمة : يوسف داود عبد القادر ، بغداد ، ١٩٧١ ، ص٨٨- ١٠١ .

١٤) باقر ، طه ، ملحمة كلكامش ، بغداد ، ٢٠٠٢ ، ص١١٦-١٢٨ .

وحول الملحمة وتحليلها ينظر :-

-Thompson , R , C ; The Epic of Galgamish ,oxford , 1931 .

١٥) كريمر ، صموئيل ، الاساطير السومرية ، المصدر السابق ، ص٧١ .

١٦) باقر ، طه ، ملحمة كلكامش ، ص١١٢ .

١٧) جواد ، حسن فاضل ، الاخلاق في الفكر العراقي القديم ، مطبعة اليرموك ، بغداد ، ١٩٩٩ ، ص٩٤-٩٦ .

١٨) الدباغ ، تقي ، المصدر السابق ، ص٢٦-٢٧ .

١٩) باقر ، طه ، ملحمة كلكامش ، ص١١٧-١١٨ .

٢٠) جواد ، حسن فاضل ، المصدر السابق ، ص٩٨ – ٩٩ .

٢١) الياد ، ميرسيا ، تاريخ المعتقدات والافكار الدينية ، ترجمة : عبد الهادي عباس المحامي ، ج١ ، ط١ ، دمشق ، ١٩٨٦ ، ص٨٣-٨٤ .

- Kramer , S. , N. ; Man and his God , ANET , 1955 , P . 37 .

٢٢) جواد ، حسن فاضل ، المصدر السابق ، ص١٠٣-١٠٦ .

٢٣) الياد ، ميرسيا ، المصدر السابق ، ص١٠٦ .

٢٤) النجم ، محمد حسين ، فلسفة الوجود في الفكر الرافديني القديم واثرها عند اليونان ، ط١ ، بغداد ، ٢٠٠٣ ، ص٣١ .

٢٥) الدباغ ، تقي ، المصدر السابق ، ص١٦ .
٢٦) روثن ، مرغريت ، علوم البابليين ، تعريب : د . يوسف حبي ، بغداد ، ١٩٨٠ ، ص٥٠-٥١ .
٢٧) بوتيرو ، جان ، الديانة عند البابليين ترجمة : د. وليد الجادر ، ط١ ، مركز الانماء الحضاري ، ٢٠٠٥ ، ص٤٩ .
٢٨) مورتكات، انطوان ، تاريخ الشرق الادنى القديم ، تعريب : توفيق سليمان ، بغداد ، بدون تاريخ ، ص٨١ .
٢٩) النجم ، محمد حسين ، المصدر السابق ، ص٣٨-٣٩ .
٣٠) فريزر ، جيمس ، الغصن الذهبي ، ترجم بأشراف د . احمد ابو زيد ، ج١ ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص٢٣٥ .
٣١) باقر ، طه ، مقدمة في أدب العراق القديم ، بغداد ، ١٩٧٦ ، ص ١٥٦ .
٣٢) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ ..... ، ص ٢٤١ .
٣٣) النجم ، محمد حسين ، المصدر السابق ، ص٣٩ .
٣٤) باقر، طه ، مقدمة في ادب ..... ، ص١٥٦ .
-Lambert , w, G ; Babylonian wisdom Literature, BWL , Oxford , 1960 , P . 141-145 .
٣٥) ديورانت ، ول ، قصة الحضارة ، ترجمة : زكي نجيب محمود ، مج١ ، ج٢ ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص٢٥٩ .
٣٦) النجم ، محمد حسين ، المصدر السابق ، ص٤٢ .
٣٧) كونتينو ، جورج ، الحياة اليومية في بلاد بابل واشور ، ترجمة وتعليق : سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي ،
ط٢ ، بغداد ، ١٩٨٦ ، ص٤٣٦ .
2) Ebling , E . , Meissner , B; Reallexikon der Assyriologie , Berlin , Leiezig , RIA.5 , 1077 , P.299 – 300
٣٩) باقر ، طه ، مقدمة في تاريخ ..... ، ص ٣٨٨ .
٤٠) سلمان ، حسين احمد ، كتابة التاريخ في وادي الرافدين في ضوء النصوص المسمارية ، بغداد ، ٢٠٠٩ ، ص١٥ .
٤١) النجم ، محمد حسين ، المصدر السابق ، ص٤١-٤٢ .

٤٢) كريمر ، صموئيل ، من الواح ..... ، ص٣٨٩ .

7) Kramer , S , N ; op . cit , P . 61-62 .

٤٤) باقر ، طه ، ملحمة كلكامش ، ص١١٢-١١٣ .

٤٥) باقر ، طه ، مقدمة في ادب ..... ، ص١٥٣ .

قائمة المصادر والمراجع

أ. المصادر العربية :-

١- الاحمد ، سامي سعيد ، الاصول الاولى لأفكار الشر والشيطان ، مطبعة جامعة بغداد ، بغداد ،١٩٧٠ .

٢- باقر ، طه ، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة ، ج ١، بغداد ، ١٩٥٥.

٣- باقر ، طه ، ملحمة كلكامش ، بغداد ، ٢٠٠٢ .

٤- باقر ، طه ، مقدمة في أدب العراق القديم ، بغداد ، ١٩٧٦ .

٥- بوتيرو ، جان ، الديانة عند البابليين ترجمة : د. وليد الجادر ، ط١ ، مركز الانماء الحضاري ، ٢٠٠٥ .

٦- تشايلد ، جوردون ، ماذا حدث في التاريخ ، ترجمة جورج حداد ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٧- جاكوبسن ، توركيلد وهنري ، فرانكفورت ، ما قبل الفلسفة ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٨- جواد ، حسن فاضل ، الاخلاق في الفكر العراقي القديم ، بغداد ، ١٩٩٩ .

٩- الدباغ ، تقي ، الفكر الديني القديم ، ط١ ، بغداد ، ١٩٩٢.

١٠- ديورانت ، ول ، قصة الحضارة ، ترجمة : زكي نجيب محمود ، مج١ ، ج٢ ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٦٥.

١١- رشيد ، فوزي ، الديانة ، حضارة العراق ، ج١ ، بغداد ، ١٩٨٥.

١٢- روثن ، مرغريت ، علوم البابليين ، تعريب : د . يوسف حبي ، بغداد ، ١٩٨٠.

١٣- ساكز ، هاري ، عظمة بابل ، ترجمة : عامر سليمان . الموصل ، ١٩٧٩.

١٤- سلمان ، حسين احمد ، كتابة التاريخ في وادي الرافدين في ضوء النصوص المسمارية ، بغداد ، ٢٠٠٩.

١٥- الطعان ، عبد الرضا ، الفكر السياسي في العراق القديم ، دار الرشيد ، بغداد ، ١٩٨١
١٦- علي ، فاضل عبد الواحد ، الادب ، حضارة العراق ، ج١ ، بغداد ، ١٩٨٥ .
١٧- فريزر ، جيمس ، الغصن الذهبي ، ترجم بأشراف د . احمد ابو زيد ، ج١ ، القاهرة ، ١٩٧١.
١٨- كريمر ، صموئيل ، الاساطير السومرية ، ترجمة : يوسف داود عبد القادر ، بغداد ، ١٩٧١.
١٩- كريمر ، صموئيل ، من الواح سومر ، ترجمة : طه باقر ، بغداد ، بلا تاريخ.
٢٠- كونتينو ، جورج ، الحياة اليومية في بلاد بابل واشور ، ترجمة وتعليق : سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي ، ط٢ ، بغداد ، ١٩٨٦.
٢١- لابات ، رينيه ، المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين ، ترجمة : الاب البيرا ابونا و وليد الجادر ، بغداد ، ١٩٨٨.
٢٢- مورتكات ، انطوان ، تاريخ الشرق الادنى القديم ، تعريب : توفيق سليمان ، بغداد ، بدون تاريخ .
٢٣- النجم ، محمد حسين ، فلسفة الوجود في الفكر الرافديني القديم واثرها عند اليونان ، ط١ ، بغداد ، ٢٠٠٣.
٢٤- الوائلي ، فيصل ، صلاة لكل اله ، مجلة سومر ، مج٢١ ، ج ١ – ٢ ، بغداد ، ١٩٦٥.
٢٥- الياد ، ميرسيا ، تاريخ المعتقدات والافكار الدينية ، ترجمة : عبد الهادي عباس المحامي ، ج١ ، ط١ ، دمشق ، ١٩٨٦.

ب- المصادر الاجنبية :-

1- Ebling , E . , Meissner , B; Reallexikon der Assyriologie , Berlin , Leipzig , RIA .5 , 1977 .
2- Kramer , S. , N. ; Man and his God , ANET , 1955 .
3- Lambert , W , G ; Babylonian wisdom Literature , BWL , oxford , 1960 .
4- Lambert , W , G & Millard , A , R ; ATRA- HASIS , The Babylonian story of the flood , oxford , 1969 .
5- Pritchard . J . B ; Ancient near eastern text , Princenton univpress new , Jersey , 1950 .
6- Thompson , R , G ; Epic of Galgamish , oxford , 1931 .